المحاضرة السابعة : الحكاية على لسان الحيوان (كليلة ودمنة)

من المعلوم أنَّ القصص الخرافي أو الأسطوري من أقدم أنواع القصص الإنساني الضارب في القدم، ومنها ما جاء على لسان الحيوان، يعرفها محمد غنيمي هلال بقوله : « القصة على لسان الحيوان في اللاتينية : Fabula أي الحكاية أو الخرافة، وأصبحت هذه الكلمة في الفرنسية والإنجليزية : Fable واسمها باليونانية apologos أي حكاية ذات مغزى خلقي (...) والخرافة مرادف لأصل معنى الكلمة اللاتينية السابقة Fabula التي أصبحت معناها الحكاية الرمزية » [1]

ويقول فاروق خورشيد عن هذا النوع من القصص : « ويعرف أصحاب علم الأساطير هذا اللون من العمل الأسطوري أو الخرافي باسم ((**الفابولات**))، وهي أسماء تطلق اصطلاحيا على الحكاية الخرافية التي تخلع على الحيوان خصائص بشرية، فتتصرف كالإنسان، وتنطق الحكمة التي تخفى أحيانا كثيرة على الإنسان نفسه » [2]

ويعرفها رفعت زكي محمود العفيفي بقوله : « هي حكاية ذات مغزى خلقي وتعليمي، يرمز بحوادثها وشخصياتها إلى حوادث وشخصيات أخرى (عن طريق المقابلة الرمزية) » [3]

وهذا النوع من القصص ظهر عند العرب، بحيث إنهم جعلوا الحيوانات تتحدث وتفعل كما يتحدث ويفعل الإنسان، وهو أمر لا أساس له من الواقع والعقل، وهي بخلاف الأسطورة – التي تكون موضع اعتقاد عند أصحابها – « لا تثير أي التباس في عدم صدقها » [4] ولهذا أطلق عليها علماء اللغة قديما : ((تكاذيب العرب أو أكاذيب الأعراب أو أحاديث العرب أو خرافات الأعراب وهو الحديث المستملح من الكذب [5]))، حتى أنَّ المبرد عقد بابا في كامله أسماه : ((من تكاذيب الأعراب))، ذكر فيه : « أبو عمر الجرميّ قال: سألت أبا عبيدة عن قول الرَّاجز:

أَهَدَّمُوا بَيْتَكَ لَا أَبَا لَكَا وَأَنَا أَمْشِي الدُّأْلَى [6]حَوَالَكَا !

فقلت: لمن هذا الشعر؟ فقال: هذا يقوله الضب للحِسْل (ابن الضب)، أيام كانت الأشياء تتكلم » [7]

من الشاهد السابق يظهر أنَّ العرب كانت تروي فيما بينها حكايات خرافية وكلاما على ألسنة الحيوان .

الملاحظ أن هذا النوع من الأدب الرمزي الأليغوري، كان منشؤه البيئات البدوية، « لأن عقلية البدو، وطبيعة حياتهم، يسمحان بنشوئه بينهم، إذ كانوا أقل وعيا وثقافة وحضارة من سكان الحضر، كما كانوا يعايشون الحيوان، ويخالطونه مخالطة شديدة، جعلتهم ينسجون حوله هذه

---

[1] – محمد غنيمي هلال، دور الأدب المقارن في توجيه دارسات الأدب العربي المعاصر، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1993، ص68.

[2] – فاروق خورشيد، أديب الأسطورة عند العرب (جذور التفكير وأصالة الإبداع، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع284، أوت 2002، ص100.

[3] – رفعت زكي محمود عفيفي، المدارس الأدبية الأوربية وأثرها في الأدب العربي، دار الطباعة المحمدية، مصر، ط01، 1992، ص114.

[4] – ركان الصفدي، الفن القصصي في النثر العربي، مرجع سبق ذكره، ص33.

[5] – من جنس أكاذيبهم أيضا الكلام عن مغامراتهم مع الجن (يُنظر : خبر خرافة من بني عذرة وحكاياته عن الجن الذين اختطفوه، حتى ضُرب به المثل : فقالوا : حديث خرافة)، وفي بعض الأحيان، يقصد بالكذب، مخالفة الواقع في حياتهم اليومية، ويظهر هذا في مبالغاتهم ونقلهم أخبارا واضحة البطلان، منها ما ذكره أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، بقوله : « تكاذب أعرابيان فقال أحدهما: خرجت مرة على فرسٍ لي، فإذا بظلمة شديدة، فيممتها حتى وصلت إليها، فإذا قطعة من الليل لم تنتبه، فما زلت أحمل بفرسي عليها حتى أنبهتها، فانجابت؛ فقال الآخر: لقد رميت ظبياً مرة بسهم فعدل الظبي يمنة، فعدل السهم خلفه، فتياسر الظبي، فتياسر السهم خلفه، ثم علا الظبي فعلا السهم خلفه، فانحدر فانحدر عليه حتى أخذه » الكامل في اللغة والأدب، ج02، مصدر سبق ذكره ،ص 148، يُنظر للاستزادة : عبد الله الغذامي، القصيدة والنص المضاد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط01، 1994، ص 113، 151.

[6] – الدألي: مشي كمشي الذئب.

[7] – أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج02، مصدر سبق ذكره، ص 147.

حقوق تأليف هذه المحاضرات حصرية للأستاذ الدكتور طارق زياي

الخرافات » [1]، ومن جهة ثانية أن الأعراب يحاكون برواياتهم هذه قصص العجم، فقد ذكر المبرد ذلك ، بقوله : « حدثني التوزي قال: سألت أبا عبيدة عن مثل هذه الأخبار من أخبار العرب؟ فقال لي: إن العجم تكذب فتقول: كان رجلٌ ثلثه من نحاسٍ، وثلثه من رصاصٍ، وثلثه من ثلج، فتعارضها العرب بهذا وما أشبه » [2]

ومن هذه القصص ما رواه الجاحظ : « أنّ شيخا نصب للعصافير فخّا، فارتبن به وبالفخ، وضربه البرد، فكلما مشى إلى الفخّ وقد انضمّ على عصفور، فقبض عليه ودقّ جناحه، وألقاه في وعائه، دمعت عينه مما كان يصكّ وجهه من برد الشّمال. قال: فتوامرت [3] العصافير بأمره وقلن: لا بأس عليكنّ، فإنه شيخ صالح رحيم رقيق الدّمعة! قال: فقال عصفور منها: لا تنظروا إلى دموع عينيه، ولكن انظروا إلى عمل يديه! » [4]

ومنها أيضا ما ترويه كتب الأمثال حول قصة (الأرنب والثعلب)، وفيها: « زعموا أن الأرنب وجدت تمرة فاختلسها الثعلب منها فأكلها. فانطلقت به إلى الضبِّ يختصمان إليه. فقالت الأرنب: يا أبا الحُسَيْل؟ فقال: سميعاً دعوتِ. قالت: أتيناك لِنَحْتَكم إليك فاخرُج إلينا. قال: في بيته يؤتى الحكم! قالت: إني وجدت تمرة. قال: حُلوة فكليها. قالت: فاختلسها الثعلب مني فأكلها. قال: لنفسه بغَىَ الخير. قالت: فلطَمته. قال: بحقك أخذتِ. قالت فَلَطمني. قال: حرٌّ انتصر. قالت: فاقض بيننا. قال: حَدِّث الرعْناء بحديثَين فإن أَبَتْ فارْبَعْ. فذهب هذا كله مثلاً. ومعنى ارْبَعْ: أمسِكْ وكُفَّ » [5]

ومن المتفق عليه بين الدارسين أنَّ الغرض والمقصد من جعل القصص تدور على ألسنة الحيوان هو التهذيب الخلقي أو الإصلاح الاجتماعي أو النقد السياسي، وهذا نجده واضحا في قصص :((كليلة ودمنة)) لابن المقفع [♠]، وكتاب : ((فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء)) لأبي محمد أحمد بن محمد، المعروف بابن عربشاه (ت 854هـ)، و ((الصادح والباغم)) لابن الهبَّارية، و((سُلوان المطاع في عدوان الطباع)) لابن ظفر القرشي، وكتاب : ((القائف)) لأبي العلاء المعري، يقول أحمد أمين ذاكرا علة تأليف أو ترجمة عبد الله بن المقفع كليلة ودمنة : « ويظهر أن تعمق ابن المقفع في دراسة الحياة الاجتماعية أدَّاه إلى استنكار كثير من الأمور، ورأى أن معظمها يرجع إلى حكام عصره، ورأى أن الحرية السياسية غير متوافرة في زمنه، فهو لا يستطيع أن ينقد الخليفة وبطانته نقدا صريحا » [6]

وهنا فائدة بديعة، وهي أنا القصص على ألسنة الحيوان أكثر ظهورها عند الأمم، إنما هي في عصور الظلم والاستبداد والقمع، الذي تعيشه الشعوب، فلا يجد مثقفوهم من طريقة لمجابهة هذا الظلم والطغيان من الحكام إلا التعبير الرمزي بمثل هذه القصص، وهذا ما أشار إليه أحمد أمين في قوله : « وتبيَّنت الحاجة الشديدة إلى هذا النوع في عصور الاستبداد، يوم كان الملوك والحكام يضيقون على الناس أنفاسهم، فلا

---

[1] – عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، مرجع سبق ذكره، ص32.

[2] – أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج02، مصدر سبق ذكره ، ص151.

[3] – توامرت : تآمرت.

[4] – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، ج 05، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، ط02، 1966، ص 238 ، 239.

[5] – المفضل بن سلمة الضبي، الفاخر في الأمثال، مصدر سبق ذكره، ص 111، 112.

[♠] – ابن المقفع فارسي مخضرم عاش العصرين الأموي والعباسي، اسمه رُوزْبه بن دادُويه، سمي ابن المقفع، نسبة لأبيه، الذي كان عاملا في ديوان الخراج في عهد الحجاج، فاختلس مالا، فضربه الحجاج، حتى تفقَّعت يده (يبست) فلقب بالمقفع، وإليه ينسب ابنه، ولد بالبصرة في القرن الثاني الهجري (اختلفوا في سنة مولده)، وقد كان مجوسيا مانويا، أسلم على يد عيسى بن علي عمُّ المنصور، الذي كان كاتبا له، وتسمى بـ : عبد الله، قتل بعد ذلك على يد سفيان بن معاوية والي البصرة من قبل المنصور، وقد كان ذكيا فصيحا جوادا، واختلف في سبب قتله، فقيل : لزندقته، وأنه ما زال على دين المجوسية، وأنه عارض القرآن وممن يثبت الزندقة عليه : أبو الفرج الأصفهاني والبيروني وابن خلكان والبغدادي صاحبة خزانة الأدب وغيرهم، وقيل : لآرائه السياسية آنذاك وموقفه من المنصور، قتل سنة : 142هـ، له كثير من المؤلفات منها: الأدب الصغير؛ الأدب الكبير؛ رسالة الصحابة؛ اليتيمة، وترجم كتاب كليلة ودمنة من الفارسية إلى العربية، وهي أشهر كتبه. وترجع أهميته كما يقول شوقي ضيف : « ابن المقفع أهميته الأولى في تاريخ النثر العربي، إنما ترجع إلى أنه كان مترجما، وأنه مرَّن أساليب العربية على حمل الثقافات الأجنبية » الفن ومذاهبه في النثر العربي، مرجع سبق ذكره، ص145.

[6] – أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج01، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1997، ص236.

حقوق تأليف هذه المحاضرات حصرية للأستاذ الدكتور طارق زياني

يستطيع ناقدٌ أن ينقد أعمالهم، ولا واعظ أن يومئ بالموعظة الحسنة إليهم. ففشا هذا الضرب من القول والقصص، يقصدون فيه إلى نصح الحكام بالعدل، وكأنهم يقولون : إذا كانت الحيوانات تمقت الظلم، وتحقق العدلَ، فأولى بذلك الإنسان ! وإذا كانت الولاة والرؤساء تأخذهم العزة بالإثم، ويستعظمون أن يُصرَّح لهم بنصح أو نقد، فلا أقل من وضع النصيحة على لسان الحيوان ! وإذا كان في التصريح تعريض الحياة للخطر، ففي التلميح نجاة من الضرر » [1]

خصائص البنية السردية لقصص كليلة ودمنة :

قبل التطرق لأهم الخصائص السردية الماثلة في كتاب : كليلة ودمنة لابن المقفع، يجب التعريج على الإطار التاريخي والأدبي لهذه القصص، وعن حيثيات ترجمتها ووصولها إلى الثقافة العربية :

نبذة عن كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع :

من المعلوم أن كتاب كليلة ودمنة يعدُّ من بين الآثار الخالدة في الثقافة الإنسانية، ولأهميته نشير إلى بعض النقاط المتعلقة به :

أصل الكتاب :

يقال إن العالم والطبيب الفارسي بَرْزَوَيْه كان مولعًا بالحكمة والعلم، وكان مقربًا من كسرى أنوشروان، فقرأ في كتاب الهنود زعمًا، يقول : إن لديهم نباتًا يُنثر على الميت فيتكلم في الحال. فارتحل برزويه إلى الهند بتشجيع من كسرى أنوشروان وواجهته مصاعب كثيرة حتى عرف أن النبات المقصود هو رمز لكتاب كليلة ودمنة الموجود لدى الراجا حاكم الهند. وقيل: إن هذا الكتاب كان متوارَثًا عند الحاكم لا يُسمح لأحد باستنساخه، إلا أن بَرْزَوَيْه بعلمه وحكمته وحسن خلقه استطاع الاطلاع على النسخة الهندية، وكان يرسل إلى كسرى أنوشروان ما يحفظه منها تباعًا. وتولى بُزُرْجُمِهْر كتابة ما يصل من بَرْزَوَيْه وصدر الكتاب بنبذة عن العالم بَرْزَوَيْه.

موضوع الكتاب وهدفه : يتناول الكتاب قصصًا تجري على لسان الحيوان في ظاهرها، وتستنطق الحيوان لتصل إلى أهداف أخرى أخلاقية وإصلاحية لشؤون المجتمع والسياسة. فالحيوان في كليلة ودمنة أداة توظيف لغاية قَصَدَها الكاتب.

وقد يتحقق هذا الهدف بعرض الحكمة مباشرة، أو من خلال الفكاهة التي تظهر في قيام الحيوان بالدور الإنساني سواء المسلك أو الحوار، يقول ابن المقفع عنه : « هذا كتاب كليلة ودمنة، وهو مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي أرادوا. ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم، ويحتالون في ذلك بصنوف الحيل؛ ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير. فاجتمع لهم بذلك خلالٌ. أما هم فوجدوا متصرفاً في القول وشعاباً يأخذون منها. وأما الكتاب فجمع حكمةً ولهواً : فاختاره الحكماء لحكمته. والسفهاء للهوه، والمتعلم من الأحداث ناشطٌ في حفظ ما صار إليه من أمر يربط في صدره ولا يدري ما هو » [2]

تبويب الكتاب وأسلوبه : يقوم الكتاب على حكاية مَثَلٍ يسأل الملك دبشليم الفيلسوف بيدبا عنه، فيسوق له الأخير قصة عن هذا المثل. وتأخذ تلك القصص شكلاً خرافيًا على ألسنة الحيوانات، تطول وتتسع لتضم في جوانبها قصصًا أخرى متداخلة، إلى أن تصل في النهاية إلى حلقة متشابكة من القصص يفضي بعضها إلى بعض، عاقدة عالما من الحكم والتجارب، ينهل منه القارئ مستزيدًا من تلك الحكم في كل قراءة جديدة للكتاب، منبهرًا برشاقة الأسلوب وعمق الفكرة.

---

[1] – المرجع نفسه، ج01، ص240.

[2] – عبد الله بن المقفع، كليلة ودمنة، مكتبة زهران، القاهرة، مصر، 2005، ص 39.

إن المتتبع الدقيق لقصص كليلة ودمنة، يلحظ أن بنيته السردية تتحكم فيها خصوصيات عدة، تستحضر ضمن مستويات مختلفة وبدرجات متفاوتة. نحاول تقصي هذه الخصوصيات السردية في العناصر التالية :

1/ الصيغة الطلبية :

البنية السردية لنص كليلة ودمنة، تتكئ على طلب داخلي، يدخل ضمن العملية السردية، فبيدبا الفيلسوف لم يؤلف « كتاب كليلة ودمنة من تلقاء نفسه، لم يؤلفه محبة في التأليف، وإنما استجابة لرغبة عبَّر عنها دبشليم ملك الهند »[1] وبهذا يكون دبشليم قد جعل نفسه متلقيا أولا ضروريا في العملية السردية ومنه تبعا جمهور المتلقين بعده، إذ لولا التلقي لما كان هناك سرد وتأليف من الأساس، هذا من جهة ومن جهة ثانية، يظهر أن دبشليم « يُسْمَعُ صوته داخل الكتاب، إذ هو الذي يقترح في بداية كل فصلٍ، الموضوع الذي يجب أن يتطرق إليه بيدبا، كل فصل يصدر، يفتتح بأمر يصدر من دبشليم »[2]

الأمر نفسه يتكرر في كل بداية قصة؛ إذ يطلب دبشليم باستمرار من بيدبأن يحكي له محدداً له إطار الحكي والعبرة منه، ففي باب: "**الأسد والثور**" على سبيل المثال يأتي الكلام: « قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف وهو رأس البراهمة، اضرب لي مثلاً لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملها على العداوة والبغضاء »[3]، وهكذا تتكرر هذه الصيغة الطلبية عبر المسار السردي للنص، ولعل هذا الطلب جاء نتيجة حتمية لفعل الاستمالة والإغراء، الذي يمارسه بيدبا مع دبشليم، حتى يضمن منه الانتباه واليقظة والرغبة في المزيد، لأنه إذا لم يظهر المتلقي رغبة في الاستماع فلا حاجة حينئذ للسرد، لأنه يصبح بلا معنى ولا فائدة.

2/ السرد في كليلة ودمنة ذو نظام إسنادي:

الملاحظ أنَّ قصص كليلة ودمنة قد سُبِقَتْ بمقدمة إسنادية، حرص على ثباتها طيلة المسار السردي للنص، وتتنوع الصيغ الإسنادية في النصوص السردية العربية القديمة، إذ نعثر على صيغة: "بلغني أيها الملك السعيد أنَّ " في " ألف ليلة وليلة"، و" حدثني عيسى بن هشام " في مقامات بديع الزمان الهمداني و" كان يا ما كان " في القصص الشعبي و"زعموا أنَّ " في "كليلة ودمنة"، فالرواة في هذه النصوص السردية ومنها كليلة ودمنة، عندما يوردون حكاياتهم، فإنهم لا يدعون أنهم أصحابها المخترعون لها، بل هم ينسبوها إلى أشخاص مجهولي العين والحال، والسؤال الذي يُطرح هنا في حق صيغة ((زعموا أنَّ))، من هم أصحاب الزعم؟ أو بصيغة أخرى من اخترع الحكايات؟ والجواب : لابد أن يكون تقريبيا، إذ لا يمكن الاهتداء إليهم، ومع هذا « فإن بوسعنا أن نقول إن بعض ملامح أصحاب الزعم تفرض نفسها، فهم عاشوا قبل بيدبا، ثم هم حكماء حكوا ما حكوا قصد إفادة من سيأتي بعدهم ويطلع على أقوالهم »[4]، وسؤال آخر لماذا يحرص السرد العربي على توفر الإسناد فيه، والإجابة تكمن في أنَّ هذا التقليد إنما هو استجابة لنزوع ثقافي عربي يؤثر الصدق والواقعية، ففي "كليلة ودمنة" عندما ترد صيغة ((زعموا أنَّ)) فبيدبا يسندها إلى آخرين مجهولين (ضمير الجمع) إمعاناً في تحقيق المصداقية، لأن الخبر المتواتر المجمع على روايته يكون أقوى تأثيراً وواقعية من خبر الآحاد، هذا من جهة ومن جهة ثانية أنَّ إسناده لهذه القصص لقوم سبقوه، يفهم منه ضمنيا أنَّ أصحابها أهل ثقة وفضل، وإلا لما حكى بيدبا قصصهم للملك دبشليم، فهو رأى فيهم أنهم أهل لتُروى حكاياتهم، ويُستشهد بأقوالهم، فهو بهذا « يقدرهم ويرى فيهم معدن الحق والخير »[5]

3/ الغرائبية في كليلة ودمنة :

ولعل هذا هو أبرز ملمح في هذه الحكايات، التي قيلت على ألسنة الحيوانات، وهذا النزوع الغرائبي كما يظهر في السرود العربية الأخرى على غرار ألف ليلة وليلة ورسالة الغفران والتوابع والزوابع، هو يؤسس لأدب عجائبي منفتح على الأمر الخارق للعادة؛ القائم أساسا على

---

[1] – عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل (دراسات في السرد العربي)، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط02، 1999، ص33.

[2] – المرجع نفسه، ص 33.

[3] – عبد الله بن المقفع، كليلة ودمنة، مصدر سبق ذكره، ص58.

[4] – عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل (دراسات في السرد العربي)، مرجع سبق ذكره، ص35.

[5] – المرجع نفسه، ص35.

مفهوم الخيال الخلاق، هذا الأخير الذي يظهر « مخترقا حدود المعقول والمنطقي والتاريخي والواقعي، ومخضعل كل ما في الوجود، من الطبيعي إلى الماورائي، لقوة واحدة فقط : هي قوة الخيال المبدع المبتكر ... » [1]

حقوق تأليف هذه المحاضرات حصرية للأستاذ الدكتور طارق زياي

[1] – كمال أبو ديب، الأدب العجائبي والعالم الغرائبي في كتاب العظمة وفن السرد العربي، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط01، 2007، ص08.